

# من الجاهلية الى الاسلام[1]

بعث محمد بن عبد الله، صلى الله عليه و سلم، والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفاً، فاذا كل شيء فيه في غير محله، فمن اثاثه و متاعه ما تكسر ومنه ما التوى و انعطف ومنه ما فارق محله اللائق به و شغل مكانا آخر ومنه ما تكدس و تكوم، نظر الى العالم بعين الانبياء فرأى انسانا قد هانت عليه انسانيته، فرآه يسجد للحجر و الشجر و النهر و كل ما لا يملك لنفسه النفع و الضرر، رأى انسانا معكوساً قد فسدت عقليته فلم تعد تسيغ البديهيات و تعقل الجليات، و فسد نظام فكره فاذا النظرى عنده بديهى و بالعكس، يستريب فى موضع القطع و يؤمن فى موضع الشك، وفسد ذوقه فصار يستحلى المر و يستطيب الخبيث و يستمرئ الوخيم وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم و لا يحب الصديق

---

١- فصل من كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟»

الناصح . و رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم كل شئ فيه فى غير شكله اوفى غير محله، قد اصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً واصبح المجرم فيه سعيداً حظيا والصالح محروماً شقيا لاأنكر فى هذا المجتمع من المعروف ولااعرف من المنكر، و رأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها الى هوة الهلاك . رأى معاقرة الخمر الى حد الإدمان و الإثخان، والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار ، وتعاطى الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال، و رأى الطمع وشهوة المال الى حد الجشع و النهامة، و رأى القسوة و الظلم الى حد الوأد وقتل الأولاد، رأى ملوكا اتخذوا اموال الله دولا و عباد الله خولا، و رأى احباراً ورهبانا اصبحوا ارباباً من دون الله يأكلون اموال الناس بالباطل و يصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت و بالا على أصحابها و على الانسانية فقد تحولت الشجاعة فتكا و همجية. والجود تبذيراً و إسرافا و الأنفة حمية جاهلية والذكاء شطارة وخديعة و العقل وسيلة لابتكار الجنايات والإبداع فى ارضاء الشهوات.

رأى افراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ينتفع بها في هيكل الحضارة، وكالواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه ويجرح به اولاده وإخوانه.

ان كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعي اهتمام المصلح وتشغل باله، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفر على إصلاح ناحية من نواحيها وظل طول عمره يعالج عيبا من عيوب المجتمع ويعانيه،

ولكن نفسية الانسان معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ والأبواب خفية التخلص والتنصل وانها اذا زاغت اواعوجت لايؤثر فيها اصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها حتى يغير اتجاهها من الشر الى الخير ومن الفساد الى الصلاح وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التي قدتنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية في أرض كريمة، وتحسم مادة الشر ويغرز فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عزوجل.

وكل داء من أدواء المجتمع الانسانى وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب اصلاحه حياة كاملة ويستغرق عمر انسان بطوله وقد يستغرق اعمار طائفة من المصلحين ولايزول، فاذا ذهب احد يطارد الخمر فى بلاد قدنشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة اعياه امرها وحبطت جهوده لأن شرب الخمر ليس الا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى فى السم وتبتغى النشوة حتى فى الاثم فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية ومفاسده الخلقية وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة[1]،

[1] منعت حكومة امريكا الخمر وطاردتها فى بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدر ان ما انفقت الدولة فى الدعاية ضد الخمر يزيد على ٦٠ مليون دولار وان ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بليون صفحة وماتحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة اربعة عشر عاماً لايقل عن ٢٥٠ مليون جنيه وقد اعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس وبلغت الغرامات الى ١٦ مليون جنيه وصادرت من الاملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون واربعة ملايين جنيه ولكن كل ذلك لم يزد الامة الامريكية الا غراما بالخمر وعنادا فى تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ م الى سحب هذا القانون واباحة الخمر فى مملكتها اباحة مطلقة —

(من كتاب «تنقيحات» للسيد ابى الاعلى المودودى)

لاتهجره الابتغيير نفسي عميق و اذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسللت الى غيره من انواع الجريمة او استباحته بتغيير الاسماء والصور.

وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحاً اذا كان الرسول صلى الله عليه و سلم رجلا اقليمياً وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين، كان له ان يعقد للأمة العربية لواءاً ينضم اليه قريش والقبائل العربية و يكوّن امارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها. ولاشك ان اباجهل بن هشام وعتبة بن ربيعة و غيرهما كانوا في مقدمة من ينضم الى هذا اللواء القومي و يقاتلون تحته و يقلدونه الزعامة. أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته؟ اما حكموه في اكبر حادث من حوادث حياتهم المكية و منحوه اكبر شرف اذ حكموه في وضع الحجر الاسود في مكانه من البيت؟ اما قالوا له على لسان عتبة، وهم ماعرفوا الاغراء السياسي: "ان كنت انما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأساً مابقيت!" و اذا صار له ذلك كان يمكنه ان يرمى الدولة الفارسية بفرسان العرب و شجعانهم و ينتصر

---

ا—البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي: ص ٦٢ ج ٣

للعروبة المهضومة و ينتصر من العجم الظالمين، ويغزو لم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم و فارس، واذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز احدى الامبراطوريتين فى ذلك الحين فكان يمكنه ان يغير على اليمن او الحبشة وجارة اخرى و يضمها الى الإمارة العربية الوليدة.

وكانت فى الحياة العربية نواح اجتماعية و اقتصادية كثيرة تحتاج الى حنكة سياسى و كفاية ادارى و عزيمة عصامى و ابتكار عبقرى، فلو قيض لها رجل من هولاء الرجال لكان للعرب شان كبير و تاريخ جديد،

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلا بباطل و يبدل عدوانا بعدوان و يحرم شيأ فى مكان ويحله فى مكان آخر، و يبدل اثرة أمة باثرة امة اخرى، لم يبعث زعيما وطنيا او قائدا سياسيا يجر النار الى قرصه و يصغى الاناء الى شقه، ويخرج الناس من حكم الفرس و الرومان الى حكم عدنان وقحطان، إنما أرسل الى الناس كافة بشيرا و نذيرا، وداعيا الى الله باذنه و سراجا منيرا، انما أرسل ليخرج عباد الله جميعا من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ويخرج الناس جميعا من ضيق الدنيا الى سعة الدنيا و الآخرة، ومن جور الاديان

الى عدل الاسلام، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة و وطن دون وطن ولكن كان خطابه للنفس البشرية و للضمير الانساني، وكانت أمته العربية لانحطاطها و بؤسها احق من يبدأ به مهمته الاصلاحية وجهاده العظيم، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافي و استقلالها السياسي خير مركز لرسالته وكانت الامة العربية لخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير جارحة لدعوته و خير داعية لرسالته

ولم يكن صلى الله عليه و سلم من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها او يتسللون فيها من نوافذها، و يكافحون بعض الادواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب فمنهم من يوفق لازالة بعضها موقتا في بعض نواحي البلاد و منهم من يموت ولم ينجح في مهمته ١

---

١– ان غاندي الزعيم الهندي الكبير استهدف من اول حياته السياسية والروحية مبدأين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية و شخصيته الروحية

أتى النبي صلى الله عليه و سلم بيت الدعوة و الاصلاح من بابه و وضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه. ذلك القفل المعقد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه، دعا الناس الى الايمان بالله وحده و رفض الأوثان و العبادات و الكفر بالطاغوت بكل معاني الكلمة. و قام في القوم

---

(تابع هامش ص ٥) القوية النادرتين في هذا العصر شعار المبدأ الاول «لاعنف و لامقاومة» وقد دعا الى هذا المبدأ كديانة و فلسفة و ظل سنين طوالا يدعو اليها بخطابه و مقالاته و صحفه واستنفد في ذلك جهوده و لما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسي و عن طريق الدعوة الدينية الاساسية لم تؤثر دعوته في نفسية أمته تأثيرا عميقا و قد جعلت هذه الامة دعوته هباءًا منثورًا في الاضطرابات الطائفية العظيمة التي وقعت في بنجاب الشرقية و دهلي عاصمة الهند في سبتمبر و اكتوبر التي قتل فيها من المسلمين اكثر من نصف مليون و كانت مجزرة بشرية هائلة وقع فيها من القسوة و الهمجية و الاعتداء على الأطفال والنساء و الأعراض مالايكاد يصدقه المورخون المتأخرون حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذي بلغت به امته الى التقديس و التأليه.

و المبدأ الثاني نسخ اللمس المنبوذ و لم ينجح في مهمته كذلك نجاحا يعتد به. فكان ذلك برهانا ساطعا على أن طريق الأنبياء هو الطريق الطبيعي الصحيح في الاصلاح و التغيير.

ينادى «يا ايها الناس قولوا: لا اله الا الله تفلحوا» و دعاهم الى الايمان برسالته و الايمان بالآخرة.

ما اخطأ المجتمع الجاهلى فهم هذه الدعوة و مراميها و ما غم على أهله أمرها و أدركوا عندما قرع اسماعهم صوت النبى صلى الله عليه و سلم ان دعوته الى الايمان بالله وحده سهم مسدد الى كبد الجاهلية و نعى لها، فقامت قيامة الجاهلية و دافعت عن تراثها دفعها الاخير وقاتلت فى سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت واجلبت على الداعى صلى الله عليه وسلم بخيلها ورجلها و جاءت بحدها وحديدها «و انطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيئ يراد» و وجد كل ركن من اركان هذه الحياة ومن أناق الجاهلية نفسه مهددة وحياته منذرة وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب، وذلك آية توفيق النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أصاب الغرض وضرب على الوتر الحساس و اصاب الجاهلية فى صميمها وفى مقتلها، وثبت النبى صلى الله عليه وسلم على دعوته ثبوتا دونه ثبوت الراسيات لا يثنيه أذى و لايلويه كيد ولا يلتفت الى إغراء و يقول لعمه «يا عم لو وضعت الشمس

فى يمينى والقمر فى يسارى ماتركت هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فى طلبه ١»

مكث بمكة ثلاث عشرة حجة يدعو الى الله وحده والايمان برسالته واليوم الآخر فى كل صراحة، لا يكنى ولايلوح ولايلين ولا يستكين ولا يحابى ولا يداهن ويرى فى ذلك دواء لكل داء، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب ورموه عن قوس واحدة واضرموا البلاد عليه ناراً ليحولوا بينه وبين أبنائهم واخوتهم، فاصبح الايمان به والانحياز اليه جدا لجد لا يتقدم اليه الا جاد مخلص هانت عليه نفسه وعزم على أن يقتحم لاجله النيران ويمشى اليه ولو على حسك السعدان، فتقدم فتية من قريش لايستخفهم طيش الشباب، ولايستهويهم مطمع من مطامع الدنيا، انما همهم الآخرة، وبغيتهم الجنة، سمعوا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وأقضت بهم مضاجعهم فكأنهم على الحسك ورأوا انهم لا يسعهم إلا الايمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بلد هم وبين سمعهم وبصرهم فكانت رحلة

---

١–البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٣.

طويلة شاقة لما اقامت قريش بينه و بين قومه من عقبات و وضعوا ايديهم فى يده واسلموا انفسهم و ارواحهم اليه و هم من حياتهم على خطر و من البلاء والمحنة على يقين. سمعوا القرآن يتلى «ام حسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ○ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» وسمعوا قوله تعالى «ام حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب» فما كان من قريش الا ما توقعوه قد نثرت كنانتها وا طلقت عليهم كل سهم من سهامها فما زادهم كل هذا الا ثقة و تجلداً وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا ايمانا و تسليما، ولم يزدهم هذا البلاء والا ضطهاد فى الدين الا متانة فى عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتا للكفر وأهله و إشعالا لعاطفتهم و تمحيصاً لنفوسهم فاصبحوا كالتبر المسبوك وا للجين الصافى وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف من الجلا.

هذا والرسول - صلى الله عليه وسلم - يغذى أرواحهم بالقرآن ويربى نفوسهم بالإيمان ويخضعهم امام رب العالمين خمس مرات فى اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحرراً من سلطان الماديات وجماح الشهوات ونزوعاً الى رب الارض والسموات، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس، لقد رضعوا بالحرب وكأنهم ولدوا مع السيف وهم من امة من ايامها حرب بسوس وداحس والغبراء ومايوم الفجار ببعيد. ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية ويقول لهم «كفوا ايديكم وأقيموا الصلواة» فانقهروا لامره وكفوا ايديهم وتحملوا من قريش ماتسيل منه النفوس فى غير جبن وفى غير عجز ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم فى مكة عن نفسه بالسيف وملكته سورة النفس مع كثرة الدواعى الطبيعية الى ذلك وقوتها وذلك غاية ما روى فى التاريخ من الطاعة والخضوع، حتى اذا تعدى قريش فى الطغيان وبلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة وهاجروا الى يثرب وقد سبقهم اليها الاسلام.

والتقى أهل مكة باهل يثرب لا يجمع بينهم الا الدين الجديد، فكان اروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ، وكانت أوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث ولاتزال سيوفهم تقطر دماً، فألف الاسلام بين قلوبهم لو أنفق احد ما فى الارض جمعاً ما الف بين قلوبهم ثم آخى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بينهم وبين المهاجرين فكانت اخوة تزرى باخوة الاشقاء وتبذ كل ما روى فى التاريخ من خلة الاخلاء.

كانت هذه الجماعة الوليدة المؤلفة من أهل مكة المهاجرين، وأهل يثرب الأنصار نواة للامة الاسلامية الكبيرة التى أخرجت للناس ومادة للاسلام، فكان ظهور هذه الجماعة فى هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذى كان يهدده وعصمة للانسانية من الفتن والأخطار التى أحدقت بها، لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار «إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة

عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم ولم تزل مجالس الرسول، صلى الله عليه و سلم، تزيدهم رسوخاً فى الدين و عزوفا عن الشهوات و تفانيا فى سبيل المرضاة وحنينا الى الجنة و حرصاً على العلم وفقها فى الدين ومحاسبة للنفس يطيعون الرسول فى المنشط والمكره و ينفرون فى سبيل الله خفافا و ثقالا . قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعا و عشرين مرة فى عشر سنين، وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مأة مرة، فهان عليهم التخلى عن الدنيا و هانت عليهم زينة اولادهم و نسائهم فى نفوسهم . ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه و لم يتعودوه، وبكل ما يشق على النفس اتيانه فى المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها، انحلت العقدة الكبرى ـ عقدة الشرك والكفر ـ فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الاول فلم يحتج الى جهاد مستأنف لكل امر و نهى، و انتصر الاسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى، فكان النصر حليفه فى كل معركة، وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم و جوارحهم و ارواحهم كافة، لايشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى و لايجدون فى انفسهم حرجا مما قضى ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى،

خذلوا الرسول كما اختانوا انفسهم، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد. نزل تحريم الخمر والكؤس المتدفقة على راحاتهم، فحال امر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والاكباد المتقدة و كسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة.

حتى اذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم وانصفوا من انفسهم إنصافهم من غيرهم واصبحوا فى الدنيا رجال لآخرة وفى اليوم رجال الغد لاتجزعهم مصيبة و لاتبطرهم نعمة و لا يشغلهم فقر و لا يطغيهم غنى، لا تلهيهم تجارة ولاتستخفهم قوة لايريدون علوا فى الارض ولافسادا و صبحوا للناس القسطاس المستقيم قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسهم او الوالدين والاقربين، وطأ لهم أكناف الأرض واصبحوا عصمة للبشرية و وقاية للعالم و داعية الى دين الله و استخلفهم الرسول صلى الله عليه و سلم فى عمله و لحق بالرفيق الاعلى قرير العين من أمته و رسالته.

لقد كان هذا الانقلاب الذى احدثه، صلى الله عليه و سلم،

فى نفوس المسلمين و بواسطهم فى المجتمع الانسانى اغرب ما وقع فى تاريخ البشر، وقدكان هذا الانقلاب غريباً فى كل شيئ: كان غريباً فى سرعته و كان غريبا فى عمقه وكان غريباً فى سعته و شموله وكان غريباً فى وضوحه وقربه الى الفهم، فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ولم يكن لغزة من الالغاز فلندرس هذا الانقلاب علميا و لنتعرف مدى تاثيره فى المجتمع الانسانى و التاريخ البشرى.

---

كان الناس - عربا و عجما - يعيشون حياة جاهلية يسجدون فيها لكل ماخلق لاجلهم و يخضع لإرادتهم و تصرفهم لايثيب الطائع بجائزة و لايعذب العاصى بعقوبة و لايأمر و لاينهى، فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم ليس لها سلطان على ارواحهم و نفوسهم و قلوبهم ولاتاثير لها فى أخلاقهم و اجتماعهم، كانوا يومنون بالله كصانع اتم عمله واعتزل و تنازل عن مملكته لاناس خلع عليهم خلعة الربوبية فاخذوا بايديهم أزمة الامر و تولوا ادارة المملكة و تدبير شئونها

و توزيع أرزاقها الى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة فكان إيمانهم بالله لايزيد على معرفة تاريخية، فكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض الى الله لايختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له «من بنى هذا القصر العتيق؟» فيسمى ملكا من الملوك الاقدمين من غير ان يخافه و يخضع له فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعائه و ما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم فكانت معرفتهم مبهمة غامضة قاصرة مجملة لاتبعث فى نفوسهم هيبة ولا محبة.

وهذه الفلسفة اليونانية قدعرفت بواجب الوجود فى سلوب ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنع والرحمة ولم تثبت له الا الخلق الاول، ونفت عنه الاختيار والعلم والارادة ونفت الصفات وقررت كليات كلها حط عن قدر الخالق وقياس على الخلق، والسلوب اذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد، ولم نعلم مدنية واحدة ولا مجتمعا ولا نظاما ولا عملا ولا بناية قامت على مجرد السلوب، فتجردت الديانة فى أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والالتجاء

اليه فى الحوادث و محبته بكل القلب و هكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها و أصبحت طقوسا و تقاليد وأشباحا للايمان .

انتقل العرب و الذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الخشبية الى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح و النفس و القلب و الجوارح، ذات تأثير فى الأخلاق والاجتماع ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها، آمنوا بالله الذى له الاسماء الحسنى والمثل الاعلى آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم الغفور الودود الرؤف الرحيم، له الخلق والأمر بيده ملكوت كل شئ يجير ولا يجار عليه الى آخر ما جاء فى القرآن من وصفه، يثيب بالجنة و يعذب بالنار ويبسط الرزق لمن يشاء و يقدر يعلم الخبء فى السموات والارض و يعلم خائنة الاعين و ما تخفى الصدور الى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه و علمه، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح إنقلابا عجيباً، فاذا آمن احد بالله و شهد ان

لا اله الا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن، تغلغل الايمان فى احشائه وتسرب الى جميع عروقه و مشاعره و جرى منه مجرى الروح و الدم، واقتلع جرائيم الجاهلية و جذورها و غمر العقل و القلب بفيضانه و جعل منه رجلا غير الرجل و ظهر منه من روائع الايمان و اليقين والصبر و الشجاعة و من خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل و الفلسفة و تاريخ الاخلاق و لاتزال موضع حيرة و دهشة منه الى الأبد، و عجز العلم عن تعليله بشئ غير الإيمان الكامل العميق.

و كان هذا الايمان مدرسة خلقية و تربية نفسيه تملى على صاحبها الفضائل الخلقيه من صرامه ارادة و قوة نفس و محاسبتها و الإنصاف منها و كان اقوى وازع عرفه تاريخ الاخلاق و علم النفس عن الزلات الخلقيه و السقطات البشريه حتى اذا جمحت السورة البهيميه فى حين من الاحيان و سقط الانسان سقطه وكان ذلك حيث لاتراقبه عين و لاتتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفسا لوامه عنيفه و وخزا لاذعا للضمير و خيالا مروعا لايرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون و يعرض

نفسه للعقوبة الشديدة و يتحملها مطمئنا مرتاحاً تفادياً من سخط الله و عقوبة الآخرة.

و قد حدثنا المورخون الثقات فى ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها الا فى التاريخ الاسلامى الدينى، فمنها ماروى مسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن ماعزبن مالك الأسلمى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «يا رسول الله، انى ظلمت نفسى و زنيت و انى أريد ان تطهرنى». فرده فلما كان من الغد أتاه فقال: «يا رسول الله انى قدزنيت». فرده الثانية فارسل رسول الله صلى الله عليه و سلم الى قومه فقال «أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً»؟ فقالوا: «ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى» فأتاه الثالثة فأرسله اليهم أيضاً فسئل عنه فاخبروه أنه لابأس به و لابعقله. فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمره فرجم.

قال فجاءت الغامدية فقالت «يا رسول الله انى قدزنيت فطهرنى» و انه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردنى؟ لعلك ان تردنى كما رددت ماعزاً

فوالله انى لحبلى قال، أما لا فاذهبى حتى تلدى، قال فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة، قالت هذا قد ولدته. قال اذهبى فارضعيه حتى تفطميه. فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز، فقالت هذا، يا نبى الله. قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمرها فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها. فاستقبل خالد بن وليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه اياها فقال «مهلا يا خالد. فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفرله» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت ١.

وكان هذا الايمان حارساً لأمانة الانسان وعفافه وكرامته يملك نفسه النزوع امام المطامع والشهوات الجارفة وفى الخلوة والوحدة حيث لايراه أحد، وفى سلطانه ونفوده حيث لا يخاف أحداً، وقد وقع فى تاريخ الفتح الاسلامى من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات الى أهلها والإخلاص لله مايعجز التاريخ البشرى عن نظائره وما ذاك الا نتيجة رسوخ الايمان ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان.

---

١ــ صحيح مسلم كتاب الحدود.

حدث الطبرى قال لما هبط المسلمون المدائن و جمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقباض فقال و الذين معه مارأينا مثل هذا قط مايعدله ما عندنا و لا يقاربه فقالوا هل أخذت منه شيأً؟ فقال أما و الله، لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا ان للرجل شأناً فقالوا من انت؟ فقال لا و الله لا اخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى و لكنى أحمد الله و أرضى بثوابه فاتبعوه رجلا حتى انتهى الى اصحابه فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس [١].

وكان هذا الايمان بالله وحده قد رفع رأسهم عالياً أقام صفحة عنقهم فلم تخن لغير الله أبداً لا لملك جبار و لا لحبر من الاحبار و لا لرئيس دينى ولا دنيوى و ملأ قلوبهم و عيونهم بكبرياء الله تعالى و عظمته فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا و مظاهر العظمه و الفخفخة فاذا رأوا الى الملوك و حشمتهم و ما هم فيه من ترف و نعيم و زينة وزخرف فكانهم ينظرون الى صور ودمى قد كسيت ملابس الانسان.

---

١ــ تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦ .

عن ابى موسى قال انتهينا الى النجاشى و هو جالس فى مجلسه و عمرو بن العاص عن يمينه و عمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين و قد قال له عمرو و عمارة انهم لايسجدن لك فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين و الرهبان، اسجدو الملك فقال جعفر لا نسجد الا لله [١]

ارسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية و أميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق و الزرابى الحرير و اظهر اليواقيت و اللآلى الثمينة العظيمة و عليه تاجه و غير ذلك من الامتعة الثمينة و قد جلس على سرير من ذهب و دخل ربعى بثياب صفيقه و ترس و فرس قصيرة و لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل و ربطها ببعض تلك الوسائد و أقبل و عليه سلاحه و درعه وبيضه على رأسه، فقالوا له ضع سلاحك فقال انى لم آتكم و انما جئتكم حين دعوتمونى فان تركتمونى هكذا و الا رجعت فقال رستم

---

١ــــ البدايه ج ٣.

ائذ نوا له فاقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق نخرق عامتها فقالوا له ماجاء بكم فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله و من ضيق الدنيا الى سعتها و من جور الأديان الى عدل الإسلام.

و لقد بعث الايمان بالآخرة فى قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة و حنينا غريباً الى الجنة و استهانة نادرة بالحياة تمثلوا الآخرة و تجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم رأى عين فطاروا اليها طيران حمام الزاجل لا يلوى على شيئ.

تقدم أنس بن النضر يوم أحد و انكشف المسلمون فاستقبله سعدبن معاذ فقال يا سعد بن معاذ، الجنة و رب الكعبة انى أجد ريحها من دون أحد، قال أنس فوجدنا به بضعاً و ثمانين ضربة بالسيف اوطعنة برمح اورمية بسهم و وجدناه قد قتل و مثل به المشركون فماعرفه احد الاأخته ببنانه ١.

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم بدر قوموا

---

١ــ متفق عليه.

الى جنة عرضها السموات والارض فقال عمير بن الحمام الانصارى يا رسول الله جنة عرضها السموات والارض قال بخ بخ نعم، قال فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم مايحملك على قولك بخ بخ قال لا و الله يا رسول الله الا رجاء ان أكون من أهلها قال فانك من أهلها فاخرج تمرات من قرنه فجعل ياكل منهن ثم قال لئن انا حييت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل ا .

عن أبى بكر بن أبى موسى الاشعرى قال سمعت ابى رضى الله عنه و هو بحضرة العدو يقول قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف فقام رجل رث الهيئة فقال يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول هذ قال نعم فرجع الى اصحابه فقال أقرء عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فالقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب حتى قتل ا .

كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج و كان

---

ا — رواه مسلم .

له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه و سلم اذا غزا فلما توجه الى احد أراد ان يتوجه معه فقال له بنوه ان الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت و نحن نكفيك و قد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله ان بنى هولاء يمنعونى ان اخرج معك و والله انى لارجو ان استشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم أما انت فقد وضع الله عنك الجهاد و قال لبنيه و ما عليكم ان تدعوه لعل الله عزوجل ان يرزقه الشهادة فخرج مع رسول صلى الله عليه و سلم فقتل يوم أحد شهيداً[١].

قال شداد بن الهاد جاء رجل من الأعراب الى النبى صلى الله عليه و سلم فآمن به و اتبعه فقال أهاجر معك فاوصى به بعض اصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه و سلم شيأ فقسمه و قسم للاعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له و كان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه اليه فقال ماهذا؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله

---

١ــزادالماد ج ٢ ص ١٣٥ .

عليه و سلم فأخذه فجاء به الى النبى صلى الله عليه و سلم فقال ماهذا يا رسول الله قال قسم قسمته لك قال ما على هذا اتبعتك و لكن اتبعتك على أن أرمى ههنا و أشار الى حلقه بسهم فأموت فادخل الجنة فقال ان تصدق الله ليصدقك ثم نهضوا الى قتال العدو فأتى به النبى صلى الله عليه و سلم و هو مقتول فقال أهو هو؟ قالوا: نعم فقال صدق الله فصدقه ١ ـ

و كانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الافعال والأخلاق و السلوك والاخذ والترك و السياسة و الاجتماع لايخضعون لسلطان و لا يقرون بنظام و لا ينخرطون فى سلك، يسيرون على الاهواء و يركبون العمياء و يخبطون خبط عشواء، فاصبحوا الآن فى حظيرة الايمان والعبودية لايخرجون منها و اعترفوا لله بالملك و السلطان و الامر والنهى ولأنفسهم بالرعوية و العبودية و الطاعة المطلقة و أعطوا من انفسهم لمقادة و استسلموا للحكم الالهى استسلاماً كاملا و وضعوا اوزارهم و تنازلوا عن اهوائهم و أنانيتهم و أصبحوا عبيداً لا يملكون مالا و لا نفسا و لا تصرفا

---

١ ـ زاد المعاد ج ٢ ص ١٩٠ ـ

فى الحياة الا مايرضاه الله و يسمح به لا يحاربون ولا يصالحون الا باذن الله ولا يرضون و لا يسخطون و لا يعطون و لا يمنعون ولا يصلون و لا يقطعون الا باذنه و وفق امره و لما كان القوم يحسنون اللغة التى نزل بها القرآن و تكلم فيها الرسول صلى الله عليه و سلم عرفوا الجاهلية و نشأوا عليها، عرفوا معنى الاسلام معرفة صحيحة و عرفوا انه خروج من حياة الى حياة، و من مملكة الى مملكة و من حكم الى حكم أو من فوضوية الى سلطة، و من حرب الى استسلام و خضوع، و من الأنانية الى العبودية فإذا دخلوا فى الاسلام فلا افتيات فى الرأى و لا نزاع مع القانون الالهى و لاخيرة بعد الامر و لا مشاقة للرسول و لاتحاكم الى غير الله و لا اصدار عن الرأى و لا تمسك بتقاليد و عادات ولا ائتمار بالنفس فكانوا اذا اسلمو انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها و عاداتها و تقاليدها الى الاسلام بخصائصه و عاداته و اوضاعه و كان هذا الانقلاب العظيم يحدث على اثر قبول الاسلام من غير أن.

هم فضالة بن عمير بن الملوح ان يقتل رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يطوف بالبيت فلما دنا منه

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضالة؟ قال نعم فضالة يا رسول الله! قال ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال لا شيئ كنت أذكر الله. فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وكان فضالة يقول والله مارفع يده عن صدرى حتى ماخلق الله شيأ أحب الىّ منه قال فضالة فرجعت الى أهلى فمررت بامرأة كنت اتحدث أليها قالت هلم الى الحديث فقلت يأبى الله عليك والاسلام ١.

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله وعن بداية هذا العالم ومصيره ومايهجم عليه الانسان بعد موته وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب وكفوهم مؤنة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا الى مجهول لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة لا تعمل فيها حواسهم ولا يؤدى اليها نظرهم وليست عندهم معلوماتها الأولية.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الامر جذعا وبدأوا البحث أنفاً وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهوله

---

١ — زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٢ .

لا يجدون فيها مرشدا و لا خريتا و كانوا فى ذلك أكثر ضلالا و أشد تعبا و اعظم اشتغالا بالفضول من رواد لم يقتنع بما أدى اليه العلم الإنسانى فى الجغرافية و ما حدد و ضبط فى الخرائط على تعاقب الأجيال فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال و عمق البحار من جديد و يختبر الصحارى والمسافات و الحدود بنفسه على قصر عمره و ضعف قوته و فقدان آلته فلم يلبث ان انقطعت به مطيته و خانته عزيمته فرجع بمذكرات وإشارات مختلة وكذلك الذين خاضوا فى الالٰهيات من غير بصيرة و على غير هدى، جاؤا فى هذا العلم بآراء فجة و معلومات ناقصه و خواطر سانحة و نظريات مستعجلة فضلوا و أضلوا۔

وكذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة و محكمات هى أساس المدنية الفاضلة و الحياة السعيدة فى كل زمان و مكان فحرموها على تعاقب الأعصار فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار و أساس منهار و على قياس و اختبار فزاغ أساس المدنية و تداعى بناؤها و خر عليهم السقف من فوقهم۔

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين

جدا اذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه و سلم فكفوا المؤونة و سعدوا بالثمرة و وفروا ذكاءهم و قوتهم و جهادهم فى غير جهاد و وفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فى ما يعنيهم من الدين والدنيا و تمسكوا بالعروة الوثقى و أخذوا فى الدين بلب اللباب.

إنّ هذا الإيمان بالله و الرسول واليوم الآخر و الاسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد فى المجتمع البشرى الى موضعه لا يقصر عنه و لا يتعداه وأصبحت الهيئة البشرية باقة زهر لاشوك فيها. أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم و آدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى يقول النبى صلى الله عليه و سلم «كلكم بنو آدم و آدم خلق من تراب و لينتهن قوم يفخرون بآبائهم اوليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان[١]» ويسمعه الناس يقول «يا ايها الناس ان الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية و تعظمها بآبائها فالناس رجلان رجل بر تقى كريم على الله تعالى و رجل فاجر شقى هين

---

١ — تفسير ابن كثير سورة الحجرات.

على الله تعالى!» و يقول «ان أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملوه ليس لأحد على أحد فضل الا بدين و تقوى [٢]» و عن أبى ذر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه و سلم قال له «انظر فانك لست بخير من أحمر ولا اسود الا ان تفضله بتقوى الله [٢]» و يسمعه الناس يقول فى ماينـاجى به ربه فى آخر الليل «وانا شهيد ان العباد كلهم إخوة» [٣].

واقتلع صلى الله عليه و سلم جذور الجاهلية و جراثيمها و حسم مادتها و سد كل نافذة من نوافذها فقال «ليس منا من دعا الى عصبية و ليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية [٤]» و عن جابر بن عبد الله قال «كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الانصارى يا للأنصار فقال المهاجرى يا للمهاجرين فقال

---

١ــــ رواه ابن ابى حاتم.

٢ــــ رواه الامام احمد.

٣ رواه ابو داؤد.

٤ــــ رواه أبو داؤد.

النبى صلى الله عليه و سلم دعوها فانها منتنة[١]» وحرم حمية الجاهلية و قيد ذلك التناصر الذى جرت الجاهلية العربية على إطلاقه فكان من الأمثال السائرة و شرائع الجاهلية الثابتة «انصر أخاك ظالماً أومظلوماً» قال النبى صلى الله عليه و سلم «من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذى ردى فهو ينزع بذنبه[٢]» و تغيرت بذلك نفسية العربى و عقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربى لايسيغ ذلك المثل العربى السائر حتى اذا قال النبى صلى الله و سلم مرة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» لم يملك نفسه فقال «يارسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟» قال صلى الله عليه و سلم «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه[٣]».

وأصبحت الطبقات والأجناس فى المجتمع الأسلامى متعاونة متعاضدة لايبغى بعضها على بعض فالرجال قوامون على النساء بمافضل الله بعضهم على بعض و بما انفقوا من أموالهم، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بماحفظ الله، لهن مثل الذى عليهن بالمعروف. وأصبح كل واحد

---

١ـــ رواه البخارى.

٢ـــ تفسير ابن كثير.

٣ـــ حديث متفق عليه.

فى المجتمع راعيا و مسؤلا عن رعيته، الامام راع و مسؤول عن رعيته والرجل راع فى أهله و مسؤول عن رعيته و المرأة راعية فى بيت زوجها و مسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده و مسؤول عن رعيته ا و هكذا كان المجتمع الاسلامى مجتمعا رشيداً عاقلا مسؤلا عن أعماله.

وأصبح المسلمون أعوانا على الحق أمرهم شورى بينهم يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم فان عصى فلا طاعة له عليهم وأصبح شعار الحكم «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ¹» وأصبحت الأموال والخزائن التى كانت طعمة للملوك والأمراء و دولة بين الأغنياء مال الله الذى لا ينفق الا فى وجهه ولا يخرج الا فى حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه والخليفة كولى اليتيم ان استغنى استعف وان افتقر أكل بالمعروف وأصبحت الأرض التى اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاؤن ويضيقونها على من يشاؤن ويقطعونها بعضهم بعضا كما يقطع الثوب أصبحت أرض الله التى من

---

١ــ حديث نبوى -

ظلم قيد شبر منها طوقه من سبع أرضين ١.

وكان المجتمع البشرى قد فقد نشاطه واريحيته فى الحياة وفى كل مايأتى ويذر وكان مجتمعاً محنوقاً، فكان مدفوعاً الى ساحة الحرب من غير أن ينشط او يتحمس لأغراض أولى الأمر وكان مدفوعا الى الصلح ولم يقض من الحرب وطراً ولم يشف نفسه وكان الرجال فى هذا المجتمع يرغمون على التضحية والايثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الامور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة، لايحبون القادة ولايحبونهم فكانوا مرغمين على ان يطيعوا من لايحبونه ويفدوا بارواحهم وأموالهم من يبغضونه، فانطفئت جمرة القلوب وبردت العواطف ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار.

كانت العاطفة القوية التى يرجع اليها الفضل فى غالب مجانب الانسانية ومعظم الآثار الخالدة فى التاريخ، تلك التى يسميها الناس «الحب» تائهة ضائعة لم يظهر منذ قرون

---

١ـ متفق عليه.

من يشغلها و يستثمرها فضاعت فى الوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة الفانيه مما تغنّى به الشعراء قديما و حديثا.

فى هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد صلى الله عليه و سلم فحل عقاله و فك إساره ثم حل منه محل الروح و النفس و شغل منه مكان القلب و العين و هو البشر الذى جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال وابلغ معانى الحسن والاحسان من رآه بديهة هابه و من خالطه معرفة احبه يقول ناعته لم أر قبله و لا بعده مثله. فاندفع اليه الحب الصادق كاندفاع الماء الى الحدور و انجذبت اليه النفوس و القلوب انجذاب الحديد الى المغناطيس كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد و أحبه رجال أمته و اطاعوه حبا و طاعة لم يسمع بمثلها فى تاريخ العشاق و المتيمين و وقع من خوارق الحب والاضمحلال و التفانى فى سبيل طاعته و إيثاره على النفس و الاهل والمال والولد مالم يحدث قبله ولن يحدث بعده.

وطئ ابو بكر بن ابى قحافة فى مكة يوماً بعد ما اسلم و ضرب ضرباً شديداً و دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين و يحرفهما لوجهه ونزا على

بطن ابى بكر جنى مايعرف وجهه من انفه وحملت
بنو تيم ابا بكر فى ثوب حتى ادخلوه منزله ولا يشكون فى موته
فتكلم آخر النهار فقال مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لامه أم الخير انظرى
ان تطعميه شيئاً اوتسقيه اياه فلما خلت به الحت عليه وجعل
يقول مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت والله مالى
علم بصاحبك فقال اذهبى الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها
عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت ان أبابكر يسألك
عن محمد بن عبد الله؟ فقالت ما أعرف أبابكر ولا محمد بن
عبد الله وان كنت تحبين ان أذهب معك الى ابنك قالت
نعم فمضت معها حتى وجدت أبابكر صريعا دنفا فدنت أم جميل
وأعلنت بالصياح وقالت والله ان قوماً نالوا هذا منك
لأهل فسق وكفر وانى لارجو ان ينتقم الله لك منهم قال
ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت هذه أمك تسمع!
قال فلاشيئ عليك منها قالت سالم صالح! قال أين هو؟
قالت فى دار ابن الارقم قال فان لله على ان لا اذوق طعاماً
ولا اشرب شرابا أوآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فامهلتا حتى اذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به

يتكئ عليهما حتى ادخلناه على رسول الله صلى الله عليه و سلم [١].

خرجت إمرأة من الانصار قتل ابوها و اخوها و زوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه سلم؟ قالوا خيراً هو بحمد الله كما تحبين! قالت أرنيه حتى أنظر اليه فلما رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل [٢].

رفعوا خبيبا رضى الله عنه على الخشبة و نادوه يناشدونه اتحب أن محمداً مكانك؟ قال لا والله العظيم ما أحب ان يفديني بشوكة يشاكها فى قدمه فضحكوا منه [٣].

قال زيد بن ثابت بعثنى رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم أحد اطلب سعد بن الربيع فقال لى ان رأيته فاقرأه منى السلام و قل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه و سلم كيف تجدك، قال فجعلت اطوف بين القتلى فاتيته و هو بآخر

---

١ــ البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠.
٢ــ رواه ابن اسحاق امام المغازى و رواه البيهقى مرسلا.
٣ــ البداية و النهاية ج ٣ ص ٦٣.

رمق و فيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح و ضربة بالسيف و رمية بسهم فقلت يا سعد ان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ عليك السلام و يقول لك أخبرنى كيف تجدك فقال و على رسول الله صلى الله عليه و سلم السلام و قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة و قل لقومى الانصار لاعذر لكم عند الله ان خلص الى رسول الله صلى الله عليه و سلم و فيكم عين تطرف و فاضت نفسه من وقته[١] .

وترس ابودجانة يوم احد على رسول الله صلى الله عليه و سلم بظهره و النبل يقع فيه و هو لا يتحرك[٢] و مص مالك الخدرى جرح رسول الله صلى الله و سلم حتى انقاه قال له مجه قال و الله ما امجه ابداً[٣] .

و قدم ابوسفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم طوته عنه فقال يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به

---

١ــزاد المعاد ج ٢ ص ١٣٣

١ــأيضاً ص ١٣٠ -

٢ــأيضاً ص ١٣٦ -

عنى قالت بل هو قرش رسول الله صلى الله عليه و سلم وانت مشرك نجس ١ .

وقال عروة بن مسعود الثقفى لأصحابه بعد مارجع من الحديبية أى قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى و قيصر والنجاشى و الله مارأيت ملكا يعظمه اصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً و الله ان تنخم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده و اذا أمرهم ابتدروا أمره و اذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه و اذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده و مايحدون اليه النظر تعظماله ٢ .

و لم يزل الانقياد والطاعة من جنود «الحب» المتطوعة فلما أحبه القوم بكل قلوبهم اطاعوه بكل قوتهم . يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه و عن الانصار قبل بدر «انى أقول عن الانصار و أجيب عنهم فاظعن حيث شئت و صل حبل من شئت و اقطع حبل من شئت

---

١ ـــ ايضاً ج ـ ص ٢٢٦ .

٢ ـــ زاد المعاد ج ٢ ص ١٢٥ .

وخذ من اموالنا ماشئت و أعطنا ماشئت و ما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت و ما امرت فيه من امر فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك و الله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك»١.

و كان من شدة طاعتهم له صلى الله عليه و سلم أنه صلى الله عليه و سلم نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فما كان من الناس الا أن اطاعوه و اصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع و لا مجيب يقول كعب و نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن كلامنا ايها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس او قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فماهى بالارض التى أعرف الى ان قال حتى اذا طال على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط ابى قتادة و هو ابن عمى واحب الناس الى فسلمت عليه فو الله ما رد

---

١ـــ ايضاً ج ص ١٢٠ـ

على السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى احب الله و رسوله فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال: الله و رسوله أعلم. ففاضت عينى و توليت حتى تسورت الجدار ١.

وكان من طاعته ايضاً . وهو فى موضع عتاب وجفوة . ان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ياتيه و يقول له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك إن تعتزل امرأتك فقال اطلقها ام ماذا افعل؟ فقال لا بل اعتزلها فلا تقربنها فقال لامرأته الحقى باهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الامر ٢.

وكان من حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وايثاره على كل أحد فى الدنيا أن ملك غسان خطب وده ويستلحقه بنفسه و تلك محنة عظيمة فى حال الجفوة والعتاب و لكنه رفض ذلك قال « بينما انا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول

---

١، ٢ــ متفق عليه.

من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له الى حتى جاء نى فدفع الى كتابا من ملك غسان و كنت كاتبا فقرأته فاذا فيه أما بعد فانه قد بلغنا ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان و لا مضيعة فالحق بنانواسك فقلت حين قرأتها و هذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها » ١ .

و من غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ماحدث عند نزول النهى عن الخمر فى مجلس شرب فعن ابى بريدة عن أبيه قال بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حده اذقمت حتى آتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلم عليه و قد نزل تحريم الخمر: يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب و الازلام رجس من عمل الشيطان الى آخر الآيتين فهل انتم منتهون بجئت الى أصحابى فقرأتها عليهم الى قوله فهل انتم منتهون قال و بعض القوم شربته فى يده شرب بعضا و بقى بعض فى الاناء فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما فى

---

١ — متفق عليه .

باطيتهم فقالو انتهيناربنا انتهينا ربنا ١ .

ومن غرائب الطاعة للرسول و إيثاره على النفس والأهل و العشيرة، ماروى عن عبد الله بن عبد الله بن أبى:
روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم عبد الله ابن عبد الله بن أبى قال الاترى مايقول أبوك؟ قال مايقول أبى أبى انت وأمى؟ قال يقول: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل فقال فقد صدق و الله يا رسول الله انت و الله الأعز و هوالأذل امو الله لقدقدمت المدينة يا رسول الله و ان اهل يثرب ليعلمون ما بها احد أبرمنى و لئن كان يرضى الله و رسوله أن آتيهما برأسه لآتيتهما به فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن ابى على بابها بالسيف لابيه ثم قال أنت القائل لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعزمنها الادل اما و الله لتعرفن العزة لك او رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الله لا

---

١ــرواه ابن جرير بسنده فى التفسير تحت قوله تعه يا ايها الذين آمنوا انما الخمر الآية تفسير الطبرى ج ٧ .

يا و يك خلاه ولا نا و يه ابداً الا باذن من الله و رسوله فقال يا للخزرج ابنى يمنعنى بيتى يالالخزرج ابنى يمنعني بيتى فقال و الله لا يا و يه أبداً الا باذن منه فجتمع اليه رجال فكلموه فقال و الله لا يد خله الا باذن من الله و رسوله فأ توا النبى صلى الله عليه و سلم فاخبروه فقال إذ هبوا اليه فقولوا له خله و مسكنه فأتوه فقال أما اذا جاء أمر النبى صلى الله عليه و سلم فنعم ١ .

---

بهذا الايمان الواسع العميق و التعلم النبوى المتقن ، و بهذه التربية الحكيمة الدقيقة و بشخصيته القوية الفذة و بفضل هذا الكتاب السماوى المعجز الذى لا تنقضى عجائبه و لا تخلق جدته بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الانسانية المحتضرة حياة جديدة، عمد الى الذخائر البشرية وهى أكدس من المواد الخام لا يعرف أحد غنائها و لا يعرف محلها و قد اضاعتها الجاهلية و الكفر و الإخلاد الى الارض فا و حد فيها باذن الله ألايمان و العقيدة، و بعث فيها الروح الجديدة، و أثار عن دفائنها و اشعل مواهبها ، ثم و ضع كل واحد

---

١ ــ تفسير الطبرى ج ٢٨ -

فى محله، فكانما خلق له، و كانما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره و يتطلع إليه و كأنما كان جماداً فتحول جسما ناميا و انسانا متصرفا و كأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حياً يملى على العالم ارادته و كانما كان أعمى لا يبصر الطريق، فاصبح قائداً بصيرا يقود الامم «او من كان ميتا فاحييناه و جعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها»

عمد الى الأمة العربية الضائعة والى أناس من غيرها فما لبث العالم ان رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر و سوانح التاريخ، فأصبح عمر الذى كان يرعى الابل لأبيه الخطاب و ينهره و كان من اوساط قريش جلادة وصرامة لا يتبوأ منها المكانة العليا و لا يحاسب له اقرانه حسابا كبيرا اذا به يفجأ العالم بعبقريته و عصاميته و يدحرج كسرى و قيصر عن عروشهما ويؤسس دولة اسلامية تجمع بين ممتلكاتهما و تفوقهما فى الإدارة و حسن النظام فضلا عن الورع و التقوى و العدل الذى لا يزال فيه المثل السائر، و هذا ابن الوليد كان احد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته

الحربية فى نطاق محلى ضيق يستعين به رؤساء قريش فى المعارك القبلية فينال ثقتهم و ثناءهم و لم يحرز الشهرة الفائقة فى نواحى الجزيرة اذا به يلمع سيفا الهيا لا يقوم له شيئى الاحصده و ينزل كصاعقة على الروم و يترك ذكرا خالداً فى التاريخ، و هذا ابو عبيدة كان موصوفا بالصلاح والأمانة والرفق و يقود سرايا المسلمين اذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين و يطرد هرقل من ربوع الشام و مروجها الخضراء يلقى عليها نظرة الوداع و يقول سلام على سورية سلاما لا لقاء بعده، و هذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش وتوسله فى سفارتها الى الحبشة لتسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائبا اذا به يفتح مصر و تصير له صولة عظيمة، و هذا سعد بن ابى وقاص لم نسمع به فى التاريخ العربى قبل الاسلام كقائد جيش و رئيس كتيبة اذا به يتقلد مفاتيح المدائن و ينيط باسمه فتح العراق و ايران، و هذا سلمان الفارسى كان ابن موبذان فى احدى قرى فارس لم يزل ينتقل من رق الى رق و من قسوة الى قسوة اذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الامبراطورية الفارسية التى كان بالامس أحد رعاياها وعجب من ذلك أن

هذه الوظيفة لا تغير من زهادته و تقشفه فيراه الناس يسكن فى كوخ و يحمل على رأسه الأثقال، و هذا بلال الحبشى يبلغ من فضله و صلاحه مبلغا يلقبه فيه أمير المومنين عمر بالسيد، و هذا سالم مولى ابى حذيفة يرى فيه عمر موضعا للخلافة يقول لو كان حيا لاستخلفته، و هذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين الى مؤتة و فيه مثل جعفر بن ابى طالب و خالد بن الوليد، و يقود ابنه أسامة جيشا فيه مثل ابى بكر و عمر، و هذا أبوذر و المقداد و أبوالدرداء و عمار بن ياسر و معاذ بن جبل و ابى بن كعب تهب عليهم نفحة من نفحات الاسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين و العلماء الراسخين، و هذا على بن ابى طالب وعائشة و عبدالله بن مسعود و زيد بن ثابت و عبدالله بن عباس قد إصبحوا فى احضان النبى الامى صلى الله عليه و سلم من علماء العالم الذين يتفجر العلم من جوانبهم و تنطق الحكمة على لسانهم ابرالناس قلوبا و اعمقهم علما و أقلهم تكلفا يتكلمون فينصت الزمان و يخاطبون فيسجل قلم التاريخ .

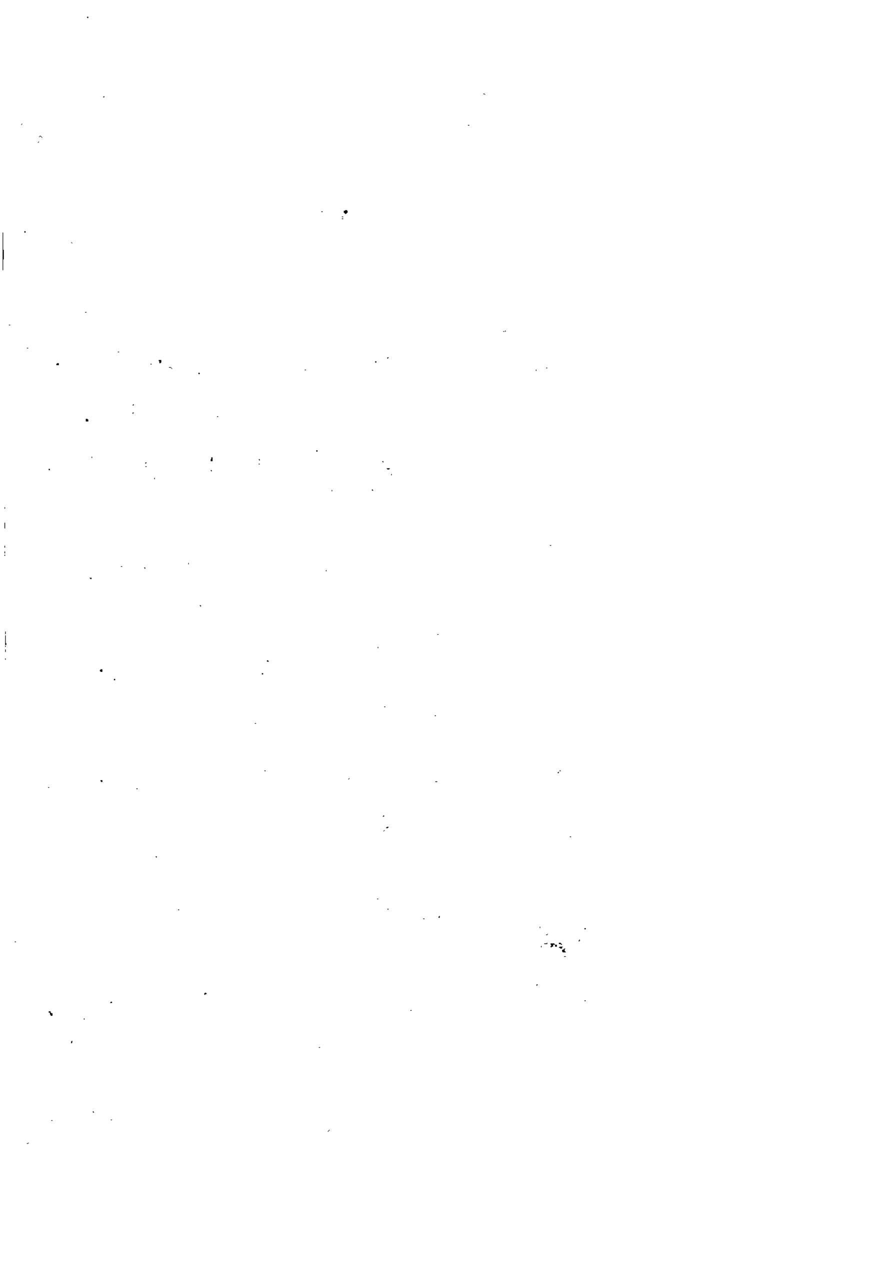
ثم لا يلبث العالم المتمدن ان يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التى استهانت بقيمتها الامم المعاصرة و سخرت

منها البلاد المجاورة، لا يلبث ان يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى احسن منها توازنا كانها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها اوكالمطر لا يدرى أ أوله خير أم آخره، كتلة فيها الكفاية التامة فى كل ناحية من نواحى الحياة الانسانية، كتلة هى فى غنى عن العالم و ليس العالم فى غنى عنها و ضعت مدنيتها و أسست حكومتها و ليس لها عهد بها فلم تضطر الى أن تستعير رجلا من أمة أو تستعين فى إدارتها بحكومة. أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين و ملأت كل ثغر و سدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية و الديانة، والقوة والإمانة، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف فانجدتها هذه الامة الوليدة التى لم يمض عليها الا بعض العقود ــ كله جهاد و دفاع و مقاومة و كفاح ــ برجل من الرجال الاكفاء فكان منها الأمير العادل و الخازن الأمين و القاضى المقسط، والقائد العابد، و الوالى المتورع، و الجندى المتقى، و كانت بفضل التربية الدينية التى لا تزال مستمرة و بفضل الدعوة الاسلامية التى لا تزال سائرة، مادة لا تنقطع و معينا لا ينضب، لا تزال تسند الحكومة برجال

يرجحون جانب الهداية على الجباية و لايزالون يجمعون بين الصلاح و الكفاية وهنا ظهرت المدنية الاسلامية بمظهرها الصحيح و تجلت الحياة الدينية بخصائصها التى لم تتوفرلعهد من عهود التاريخ البشرى ـ

لقد و ضع محمد صلى الله عليه و سلم، مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على مافيها من كنوز و عجائب و قوى و مواهب، أصاب الجاهلية فى مقتلها و صميمها، فأصمى رميته، و أرغم العالم العنيد بحول الله على ان ينحو نحواً جديداً، و يفتتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الاسلامى الذى لايزال غرة فى جبين التاريخ





## للمؤلف

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

٢ ـ الى ممثلى البلاد الاسلامية

٣ ـ المد و الجزر فى تاريخ الاسلام

٤ ـ خواطر و فصول

٥ ـ من نفحات القرن الأول

تطلب

من مكتبة الاسلام، لكهنؤ (الهند)

سلسلہ مطبوعات مکتبۂ اسلام لکھنؤ

# من الجاهلية إلى الإسلام

ابوالحسن علی الحسنی الندوی

مكتبة الاسلام لكناو

الطبعة الاولى ـــــــ ١٣٦٨ھ

طبعت فى هندوستان پريس - رامپور ( الهند )



و بعد فهذه رسالة نقدمها الى القراء و هى فصل من كتابنا الكبير «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» و الرسالة كأخواتها من مقالات و محاضرات ترمى الى تغذية الفكر الحديث فى الأقطار العربية التى هى معقل الانسانية اليوم و مناط آمال المهتمين بشؤون العالم بالأدب الاسلامى الحى الدسم الذى ينفخ فى الشباب الروح الاسلامى ويعده لقيادة العالم الحائر التائه و تجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين و الركاب النائمين، و ذلك لايكون الا باتباع منهاج الأنبياء فى الاصلاح و الجهاد اذاً لابد من معرفة طبيعة هذا الاصلاح و ما يمتاز به عن غيره من حركات الانقلاب و الثورات و من مشاريع التعليم و التربية و اذاً لاغنى عن حديث اعظم اصلاح و جهاد سجله التاريخ البشرى، الاصلاح الذى قام به سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم بامر من الله و على أساس من الوحى الالهى و الكتاب السماوى و هو الطريق الوحيد لنهوض العالم من عثاره.

ان الانتقال من الجاهلية الى الاسلام اعظم انتقال و اعجبه فى تاريخ التحولات والحوادث، و كانت الشقة التى قطعها المسلمون فى القرن السادس المسيحى فى تحولهم من الوثنية بما وسع معانى الكلمة الى دين التوحيد اطول شقة قطعها البشر فى اقصر مدة و اقرب وقت عرفه التاريخ فالحديث عن هذا السفر العجيب حديث طريف و حديث شائق و حديث يهم العالم كله معرفته فى العصر المتحير المرتبك الذى قد تحرك ركبه و سار و لم يعرف بعد غايته التى يقصدها و المكان الذى ينتهى اليه.

والى القراء هذا الحديث، و سيتبعه مقالات و رسائل تكون المكتبة الاسلامية الصحيحة للناشئة الاسلامية و الشباب الناهض.

على الحسنى

رامپور ١٤-٨-٦٨ هـ